الافتتاحية : اللغة العربية، مقاومة ومصير

د. بوجمعة هيشور

وزير الاتصال

إن المجتمع الإنساني في عهد حوار الحضارات والأديان يراهن على التحديات التي تنتظر المجتمعات في عالم يتجادل فيه الفكر.

فالحافز الذي تحدثه الأمم من خلال إبداعاتها وتطوير لغاتها يجعل الإنسان في سباق مع الزمن لما ترسمه العولمة الثقافية من رهانات حول تكنولوجيا الاتصال كالانترنيت وغيرها.

ففي هذا السياق نجد المجلس الأعلى للغة العربية يبذل مجهودات جبارة للارتقاء باللغة العربية إلى مصاف اللغات الحية التي أعطت للإنسانية صفحات مجيدة رسخها التاريخ عندما كان العرب يقومون بحركة الترجمة فنقلوا إلى العربية علوم الحضارات المتعددة كالفارسية والهندية والصينية والمصرية واليونانية والبيزنطية وغيرها.

ألا نتذكر ما قدمته الأندلس لأوروبا من مؤلفات في شتى المجالات العلمية والفنية والأدبية والفقهية علما بأن ثلة من هؤلاء العلماء كانوا من أمازيغ الجزائر.

أما في الجزائر فقد رافقت العربية مجيء الفتح الإسلامي لنشر الهداية وإقامة العدل، ودخل أبناء الأمازيغ في الإسلام واستجابوا لتعاليمه، وانكبوا على تعلم اللغة العربية طائعين وامتزجوا بالعرب الفاتحين ونافسوهم في مجالس العلم وشاركوهم في شتى الميادين المدنية والعسكرية وفي تشييد صرح الحضارة الإسلامية رافعين لواء لغة الضاد واصبحوا شعبا واحدا متحد المصير واللسان وامتزجت الدماء بالمصاهرة ولم يعد هناك فرق بين الأجناس، وعليه فإن الأمة الجزائرية تعربت تعريبا اختياريا طبيعيا وصادقا.

واليوم ونحن نحتفل بالذكرى الخمسين لثورتنا المجيدة، والشعب الجزائري يتذكر الأجيال التي عاشت قرنا واثنتين وثلاثين ستة من الاستعمار الذي حاول بشتى الوسائل طمس شخصيته الوطنية وهويتها، ها هو يسترجع حريته بعد سنين طويلة من المقاومة والتضحيات من أجل أن يعيش كريما وطليقا في تربة سقتها دماء الشهداء الذين ضحوا من أجل استقلال هذا الوطن العزيز.

والملاحظ أن الدافع الأساسي في تحرير الوطن من وطأة الاستعمار كان متمثلا في المقاومات الشعبية التي غذاها حفظ القرآن الكريم بلغته العربية داخل المدارس الحرة والزوايا، فقد كانت بمثابة الإسمنت اللغوي والديني الذي وحد الكفاح ضد المستعمر.

وفي هذا السياق يؤكد الإمام ابن باديس رحمه الله أن " ... لهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعاداتها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمم الدنيا". ثم يضيف قائلا:" إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت".

وعليه فإن اللغة العربية في الجزائر رغم الظروف الاستعمارية بقيت دائما تتداول شفويا لتنقل لنا ذلك النمط من الأدب الشفهي وحامي اللغة، الذي كان يبدو لأول وهلة سطحيا وساذجا لكنه عند التمعن فيه نكتشف فيه عمق الحكمة ورونق المادة المعبرة عن حياة المواطنين اليومية وظواهر مجتمعهم.

إن التغيرات التي نعيشها في عالمنا هذا تستوقفنا للنظر في المسالة اللغوية التي تريد أن تكون اللغة العربية واللغة الأمازيغية القاعدة الأساسية لهويتنا، ويبقى المجتمع الجزائري متفتحا على جميع اللغات ليستفيد من الموروث الفكري الإنساني.

وهكذا نرى القبول بفكرة تعدد اللغات هو أنجح طريقة للتكامل الثقافي والحضاري والمبادلات الإنسانية بعيدا عن كل الطابوهات التي كانت تعرقل دائما المبادرات الرامية إلى إثراء الفكر الإنساني في المجالات العلمية والفنية والأدبية.

وعندما ننظر إلى المفردات فإن جميع لسانيي اللغة يستطيعون بنجاح معقول تحديد كلمات لغاتهم وبيان معانيها والفرق بين المعرفة الكيفية والمعرفة العادية تبدو مغيبة أو على الأقل ضعيفة إلى درجة كبيرة ولذلك فمن وجهة نظر دوسوسير الخاصة فإنه لم يكن مضطربا في التفريق بين البحثين وأن اللغة حقيقة اجتماعية أكثر من كونها حقيقة نفسية.

عندما يتعامل اللغوي مع لغة أجنبية يصبح من السهل عليه نسبيا أن يتجاهل نظريات المتحدث حول لغة الأم، مع أن تعلم مثل هذه النظريات يتطلب جهدا إيجابيا ولكن الوصفيين الذين تعاملوا مع

لغات مألوفة قد لجأوا في بعض الأحيان إلى مقاييس صارمة حتى يتجنبوا تشويه أوصافهم بواسطة الأحكام"القبل العلمية" الموروثة.

ومن خصائص اللغة العربية أنها من أكثر اللغات الثقافية غيرة على نقائها وصفائها وذلك لارتباطها بالإسلام ومرجعيتها القرآنية وقدرتها على الاشتقاق، إذ يكفيها أن ترجع إلى جذورها لتأخذ ما شاءت من الكلمات التقنية وذلك سر قوتها وثرائها. وقد تمكنت بفعل تأثيرها الثقافي والحضاري أن تخترق لغات أخرى في العالم وتولد فيها مفردات كما هو الحال بالنسبة للفارسية والتركية وكذلك الإسبانية. ولم يؤثر اختلاف اللهجات على عمق وحدتها وإشعاعها الحضاري على مر العصور.

هذا ما نشرته جمعية العلماء الجزائرين في بدء النهضة الفكرية في ترسيخ اللغة العربية وتعليمها للنشء، علما بأن اللغة العربية كانت في إحدى المواد الأساسية لمواثيق وقوانين أحزاب الحركة الوطنية برمتها. ألا نذكر الصحافة العربية ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية وتعزيز المقومات الشخصية الوطنية من أول جريدة صدرت في 1847 وهي "المبشر" و"الإقدام" للأمير خالد 1929 و "المنتقد" المنبر الرسمي لحركة الإصلاح سنة 1925 و" الشهاب" و" البصائر" إلخ...

هكذا عشنا من أجل الجزائر والعروبة والإسلام وهكذا تحررت الجزائر بفضل الأبطال وهكذا ترنمت الأجيال بلسان العرب، فيكفينا فخرا عندما انتقل عدد المتمدرسين في بداية الاستقلال مما يقل عن 400.000 أربعمائة ألف إلى ما يفوق 8000.000 ثمانية ملايين تلميذا يحسنون اللغة العربية ويتقنونها في شتى المجالات بعدما كان الشعب الجزائري محروما من التعليم والقراءة والكتابة.

إن الجزائر المستقلة قدمت بذلك جهدا كبيرا في تنمية النظام التربوي وإعطاء المكانة المرموقة للغة العربية في التدريس وجعلت منها أداة للتحول من خلال المنجزات الكبرى التي حققتها كالجامعات والمدارس والثانويات والمساجد إلخ...

ويضاف إلى ذلك البرامج التي جاء بها فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة من خلال الانعاش الاقتصادي في العهدة الأولى حيث بنيت العديد من المؤسسات التربوية الجامعية والمختبرات وها هو الآن يستمر في الجهد ليصب خمسين مليارا من الدولارات في النمو الاقتصادي ليجعل من الجزائر هذه الورشة التي ستبني مستقبلا زاهرا للأجيال في كنف الاستقرار والتضامن والوئام، وما التزم به فخامة الرئيس أمام الشعب الجزائري حيث بايعه بـ 85 ¨% من أصواته ليزيد الجزائر رفاهية في كنف السلم والمصالحة الوطنية . وبناء مدرسة أصيلة متفتحة على العالم في القرن الواحد والعشرين الذي أصبحت فيه الأمم تتنافس في مجال الإبداع العلمي والتكنولوجي فتكون الجزائر على موعد مع التاريخ.